

ملحمة القوافي في يوم لا مثيل له ولا عديل



www.balagh.com

الإتيان بالجديد في أي حقل من حقول العلوم العقلية والنقلية وعموم الآداب والفنون الإنسانية، يمثل فتحاً معرفياً قصرت خطوطه أو طالت، له أن يطل على باب آخر يفتح مجاليق قفله، والعلوم تأتي بالعلوم كعين ماء مستفيض.

وإذا كان الفتح المعرفي في العلوم التجريبية هو أقرب للمنال لكلٍّ باحث يعكف في محراب مختبره وورشه، فإنَّ الجلوس في محراب العلوم العقلية يطول، ولا يأتي الفتح إلَّا على فترات وعلى أيدي عقول قليلة الوجود أو هي نادرة في كلِّ عصر، ولهذا لنا أن نعدُّ المئات من الأسماء التي صالت في ميدان العلوم التجريبية على طول حياة البشرية، ولكن دولاب العد والفرز في العلوم العقلية يتباطأ دورانه وتقل حركته وإن كثرت في العلوم النقلية، لكن تبقى الفاصلة كبيرة بين أعداد العلماء بين الحقول العلمية والمعرفية.

وهذا الأمر ينسحب هو الآخر على الآداب والفنون، وبخاصمَّة في مجال النَّظم والشعر، فديوان الأدب يحمل المئات من أسماء الشعراء والأدباء بيد أنَّ الذكرة الإنسانية تظل محتفظة بعدد قليل من الأسماء اللامعة، ويكاد ينبع في كلِّ عصر من الأدباء والشعراء أقل من أصابع اليدين، فالعصر الجاهلي على قوَّة ببيانه حمل إلينا سجله القليل من أسماء الشعراء واحتفظ العصر الراشدي والأموي والعباسي بأسماء قليلة شاخصة، وحتى في العصر الذي نعيشه، فإنَّ أسماء الشعراء الفحول قلة قليلة.

ومن أبواب الشعر التي يقل فيها الفاتحون هو شعر الملاحم، وهناك شعراء كثيرون نطَّموا في حقول

كثيرة وقلة منهم مَن يجيد نظم الملحم الشعيرية التي تتعدّى أبیاتها الألف التي عکف ناظموها على تنضيد عقودها لمدة طويلة وعلى فترات تتناول بطولة إنسان مشهود أو قصة شعب موعود أو مرحلة زمنية طالت أو قصرت، ثمّ تقوم الأجيال بتناقلها مستذكرة عصر الأجداد وبطولاتهم وملحومهم، من قبيل ملحمة جلجامش السومرية وإلياذة هوميروس الإغريقية وشاھنامة فردوسي الفارسية والكوميديا الإلهيّة لدانتي الإيطالية.

وإذا كانت الملحم الشعيرية جمعت بين الحقيقة والخيال وأضفت على الخيال مصداقية، فإنّ واقعة كربلاء واستشهاد الإمام الحسين بن عليّ بن أبي طالب (ع) يوم عاشوراء للسنة 61 الهجرية مع (72) شهيداً من أهل بيته من الطالبيين لوحدهم والمئات من أصحابه وحرق خيامه وأسر عياله، تمثّل الحقيقة المرة في تاريخ العرب والمسلمين وبل في تاريخ البشرية حيث لا يوم كيوم الحسين (ع) ولن يكون.

وخلال متابعتي للشعراء الذين نظّموا في الإمام الحسين (ع) ونهضته المباركة منذ القرن الأوّل الهجري وحتى الآن بحكم عمله في دائرة المعارف الحسينية منذ ربع قرن، وجدت قلة قليلة مَن نظم في الواقعه كلّها وتعدّت أبیات قصائدهم المائة أو نحو المائتين، وعلى قلة الأبیات نسبة للملامح الشعرية الكبرى لكن الشاعر فيها حاول الإمام بمجريات واقعة الطف ليقدم صورة واضحة المعالم مع بعض التفاصيل، من قبيل ملحمة الشاعر الحسن بن راشد المخزومي المتوفى حوالي سنة 800 للهجرة وهي في (185) بيتاً يتبع تفاصيل واقعة الطف الأليمة، ومثلها ملحمة الشاعر علي بن الحسين الحلي الشفهي من شعراء القرن الثامن الهجري وهي في (159) بيتاً، وغيرهما، ويعتبر الشيخ عبدالمنعم الفرطوسي المتوفى سنة 1404هـ (1983م) استثناءً من الشعراء حيث نظم ملحمة في أهل البيت من أكثر من أربعين ألف بيت في ثمان أجزاء اختص معظم الجزء الثالث بالإمام الحسين (ع) وواقعة الطف وما جرى قبلها وما بعدها.

أمّا الجديد في الملحمة العاشرائية هو ما أقدم عليه الأديب الشيخ محمد صادق الكرياسي صاحب الموسوعة الحسينية الشهيرة بفتح أدبي حين نظم ديواناً كبيراً في شهداء كربلاء واحداً واحداً بدءاً من سيد الشهداء الحسين بن عليّ (ع) وانتهاءً بالرضيع عبد الله بن الحسين مروراً بكلّ شهداء الواقعه من الطالبيين والأنصار رجالاً ونساءً أسماء «سفائن الأمل في الحسين والقليل» ضم 477 قصيدة في جزئين نال الأوّل 235 قصيدة توزّعت ضمن قوافي الهمزة حتى الشين وتوزّع الإيقاع بين بحور الخليل القديمة وبحور الكرياسي المستحدثة، صدر حديثاً (2019م) عن بيت العلم للنابهين في بيروت في 550 صفحة من القطع الوزيري مع تقديم وتعليق بقلم الشاعر الجزائري الدكتور عبد العزيز شبين.

أنصار وموافق

توزّعت قصائد الملحمة الكرياسية على القوافي بالنحو التالي: الهمزة والألف: 17 قصيدة، الباء: 28، الثناء: 12، الثناء: 5، الجيم: 4، الحاء: 6، الدال: 3، الدال: 58، الذال: 7، الراء: 64، الزاي: 5، السين: 11، الشين: 5، تناولت 203 شخصيات وموافقتها في واقعة كربلاء من نساء ورجال وأطفال، من شهداء وأسرى.

ويشكّل هذا الديوان في واقعه مشاعل أدبية شعيرية لبيان حقيقة الأنصار في كربلاء من نساء ورجال، وكان الأديب الكرياسي قد بحثهم بشكل مفصل في دائرة المعارف الحسينية في باب الأنصار في عشرة أجزاء ثلاثة لأنصار من الهاشميين ومثلها للنساء المشاركات في كربلاء وأربعة لأنصار من غير الهاشميين، صدر منها ثمانية أجزاء.

ولما كان هذا الديوان هو الوجه الآخر لباب معجم الأنصار من دائرة المعارف الحسينية، فإنّ الأديب الكرياسي مهّد له بقصيدة من الرجز المسدس المرفوع قال فيها:

ربّي تقدّل رثائي في القُتلْ ** أعني حسيناً وأنصاراً كُتلْ

بـِنْتُ فِيهِ شَخْصٌ الْمُنْتَدَبُ *** اسْمًا وَوَصْفًا كَمَا أَصْلَ النَّسَبِ.

ويختتم القصيدة بقوله:

خُذْ جَمِيعَهُمْ فِي كِتَابِ جَامِعٍ *** نَظَمَاً أَتَى خَدْمَةً لِلْسَّامِعِ

أَنْشَأَهُ فِي طَرِيقِ الْمَرْكَنِ *** أَيْضًاً لَدِي عُودِتِي لِلْمَسْكَنِ.

وهنا يشير الناظم إلى «أدب الطريق» الذي اشتهر به، حيث أخذ على عاتقه منذ خمسة عشر عاماً أن يشغل نفسه في طريق الذهاب والإياب بين المنزل والعمل وبالعكس راجلاً، بنظم الشعر حتى تصلّى لديه أكثر من عشرين ديواناً كبيراً في حقول وأغراض مختلفة، وإذا اعتكف في محراب البحث والتحقيق حرّر في أبواب الموسوعة الحسينية التي صدر منها حتى الآن 116 مجلداً، والتي قدّمها هدية لسيّد الشهداء كما يعبّر عن ذلك في قصيدة بعنوان «أفديك فؤادي» من بحر مسدس الرمل يقول في أولها:

هَا كُمُّ هَدِيَ التَّلَاقِي بِالْمَعَادِ *** صَرْخَةٌ تَدُوِي عَلَى لَحْنِ الْوَدَادِ

لَحَبِيبِ الْمَصْطَفِي أَهْدِي كَتَابِي *** هُوَ وَحْيٌ وَشَعُورٌ وَمَدَادٌ

وَتَمَذَّى الناظم لِوَازِّهِ فِي كَرْبَلَاءِ يَفْدِي رُوحَهُ مَعَ شَهَدَاءِ كَرْبَلَاءِ، وَلَكِنْ حَيْثُ فَاتَهُ هُنَاكَ رَفْعُ السِّيفِ فِي إِنَّهِ شَحَدَ قَلْمَ دَائِرَةِ الْمَعَارِفِ الْحَسِينِيَّةِ عَرْفَانًاً وَوَفَاءً لِلدَّمَاءِ الْزَّكِيَّةِ، وَلَهُذَا يَوْمًا مُشَاعِرَهُ:

يَا حَسِينَ الْسَّبِطِ خُذْهُ مِنِّي كَتَابِي *** مِنِّي يَمِينِي يَوْمٌ لَا يَنْجُو الْمَعَادِي

إِنْ يَكُنْ قَدْ فَاتَنِي الْعَشْرُ فِي إِنَّهِ *** يَا شَهِيدَ الطَّفِ أَفْدِيكَ فُؤَادِي

والعشر هنا إشارة إلى يوم العاشر من محرم الحرام سنة 61هـ أي يوم عاشوراء واستشهاد الإمام الحسين (ع) وأهل بيته وأنصاره، وحيث يقدّم المحقق والناظم موسوعته دواؤينه على طريق إحياء دين الإسلام وما حملته النهاية الحسينية من رسالة عظيمة للبشرية، فإِنَّه يرجو بذلك شفاعة الرسول الأعظم يوم الورود، يوم لا ينفع مال ولا بنون، من هنا فإِنَّه يعلن صراحة في خاتمة قصيدة في رثاء الشهيد بكرباء محمد بن العباس بن عليّ بن أبي طالب (ع) بعنوان «ابن لبابة» من بحر الهرج:

أَعْزَّيِ الْمَصْطَفِي وَالْمَرْتَضِي وَالْمَجَ *** سَبَّى وَالْمَفْتَدِي ثُمَّ ابْنَ عَبَّاسِ

حَبِيبِي يَا رَسُولَهُ أَوْلَيْكَ إِلَّا *** عَزَّزَاهُ فَاقْبَلَ بِذَا وَاسْفَعَ لِكَرْبَاسِي

فالكرباسي فيما يحرر نثراً وينظم شعراً يرجو في خاتمة الأمر شفاعة النبيّ (ص) وأهل بيته الكرام، وهي شفاعة لا ينالها إِلَّا ذو حظ عظيم ومكانة لا يصل مرقاها إِلَّا منظور هميم.

إشارات وإضاءات

كثيرة هي الإشارات والإضاءات المنبعثة من نوافذ أبيات الديوان، وكلّ إشارة أو إضاءة تكشف عن مكنة أدبية وفنّية لدى الناظم في تطوير المفردة ووضعها في ميزانها، وبنعيير المقدم الدكتور عبد العزيز شبین: (الفنان مَنْ عَرَفَ كَيْفَ يَكْسُو نَصَّهُ مِنَ الْبَدِيعِ زَخْرَفَةً، وَيَبْنِي لَهُ مِنَ الْمَعَانِي عَمَدًاً، لَيْسَ فِي نَسْجِ

كسائه رقّة، ولا وسَمَ صرخ لفظه فلُجُّ، ولا يستقيم العمل الأدبي شعراً إِلا بأداتي اللطف والوزن مجتمعين يسند أحدهما الآخر، ولا يُقاد جمال الإبداع حتى تكتمل الأداتان معاً) وهو ما جاء به الناظم في هذا الديوان، من هناك كما يضيف المقدّم: (وفائد الأمّل للكرباسي .. ديوان شعرى حماسى تعُّجُ فيه عاطفة الولاء للحسين (ع) وتکاد تضاهي العاطفة نفسها نفسها التي رسمها بعض الشعراء فيما كتبوه من الملحم التي رأيناها .. ديوان سفائن الأمّل ملحمة أراد صاحبها أن يُضاهي بها تلك الملحم وصفاً موضوعاً، وكان الحسين (ع) جوهر الغرض فيه).

ومن بديع السفائن أن الناظم في قصيدة «رجال الغاضبة» وهي من الرجز المسدس السالم مُتَسَّعة الأبيات أورد فيها أسماء كل القبائل والعشائر التي اشتراك أبناؤها في نصرة الإمام الحسين (ع) واستشهدوا معه، ومطلعها:

قوم لهم في العرب شأنٌ حاضرٌ *** في زينوى عجمٌ أتوا قد ناصروا

وهذه القصيدة لوحدها هي في واقعها منظومة في الأنساب على طريقة المنظومات الشعرية التي ينظمّها أصحابها لتسهيل العلم على القارئ في استيعاب مادة العلم عبر حفظه للمنظومة، من قبيل منظومة في النحو ومنظومة في الفقه ومنظومة فيأصول الفقه ومنظومة في المنطق ومنظومة في الحساب وهكذا مثل منظومة «ألفية ابن مالك» في النحو.

ولا يقتصر مدح العشائر وشهادتها على الرجال دون النساء، فالمرأة في واقعة كربلاء لها دور مشهود قبل الواقعه وأثناؤها وبعدها، وقد بلغت الحمية بالمرأة أن فدت نفسها دون الحسين (ع) رغم أن المواجهة الحربية كتبت على الرجال دون النساء، وبتعبير الشاعر عمر بن أبي ربعة المخزومي المتوفى سنة 93 للهجرة:

كُتب القتل والقتال علينا *** وعلى النساء جر الذيل

لكن واقعة كربلاء سجلت حالات استشهاد عدد من النساء، والموقف النسووي وإن دل على شجاعة المستشهدة وغيرها ولكنّها من جانب آخر تعكس انحطاط أخلاقيات المعسكر الأموي الذي تجاوز الأعراف ونوايس الحرب في الاعتداء على النساء، وفي هذا الديوان يخبرنا الكرباسي عن الموقف البطولي لأُسرة عبداً بن عمير الكلبي المتكونة من زوجته قُمر بنت عبدالنمرية وابنه وهب وزوجته هانية، فالإُسرة بأربعمائة شهادة في كربلاء، في موقف قل نظيره بل ندر، من هنا فإن الناظم يصف الأُمّ بأخت الرجال فيقول من الرجز المقبوض:

يا أخت الرجال يا أمّ وهب *** فيك النور قد تجلّى وغلّبَ

نعم الاسم ترتدي يا قمراً *** ذل زال منك طرًا وذهبَ

وحيث تزاحم القصائد في رثاء هذا الشهيد وتعطيم موقف ذاك الشهيد، فإنّ في واقعة الطف أشخاصاً اختلف أصحاب الشأن في إثبات وجودهم في كربلاء أو نفيه، وهذا ما بحثه الأديب الكرباسي في معجم أنصار الحسين من دائرة المعارف الحسينية، وزاد في هذا الديوان أن سجل رأيه عبر النّظم فأثبت وجود البعض ونفي آخرين، مثلما فعل مع سلمى بنت حجر بن عدي الكندية التي ذكرها الأديب اللبناني جرجي زيدان المتوفى سنة 1914م في روايته «غادة كربلاء» ضمن أسرى الركب الحسيني، وهي رواية جمعت بين الحقيقة والخيال، وفي المدعى يقول الناظم في قصيدة بعنوان «سلمى الكندية» من الرجز:

قد أدخل البعض في الأسرى *** تلك التي سُميت سلمى

جريجي روی قصّة فيها *** كان ادّعى أزّها قربى

ثم يقطع قطع المحقق الفطن:

ذاك افترا حُبْلَهُ واهٌ *** حتى وإنْ زِيَّنَ المرأى

وعلى هذا المنوال يرفع النظام للبس عن شخصية معادية لأهل البيت (ع) أدخلها البعض في جملة أنصار الإمام الحسين وهو الأشعث بن قيس الكندي وهو ممّن عادى الإمام عليّ (ع) فيما عادى ابنه محمد الإمام الحسين (ع) وعادت ابنته جعدة الإمام الحسن (ع)، فيقول من قصيدة بعنوان «ابن القيس» من مسدس الرمل:

أشعرُ ليس كنجلِ القيس** بالولا يُعرفُ قيدَ الدرس.

وهكذا يؤتينا الأديب الکرباسی في سفائه من نیران کربلاء بقبس يضيء لنا درب المعرفة وهي موشأة باللوان البديع عن نصیر للحسین (ع) أو نصیرة.

وإذا جاء الكرياسي في «سفائن الأمل» بفتح أدبي شعرى لم يسبق إليه أحد في رثاء الإمام الحسين (ع) وأهل بيته وأنصاره كلّ على حدة، فإذّه جاء بسبق أدبي آخر سنقرا خطوطه العريضة عمّا قرّيب، عندما نظرّم قصائد هجاء لكلّ مَنْ بان اسمه ورسمه من المعسّر الأموي مشاركاً في فاجعة كربلاء في ديوان أسماء «وقود سقر»، وفي «السفائن» قلل شامخة باعت العاجلة برضى الخالق فظفرت بالدرجات السامية، وفي «الوقود» رماد هاماً دعا باعت الآجلة برضى المخلوق فاستحققت الدرّكات الحامية.